الشيخ طاهر الجزائري

رائد النهضة العلمية في بلاد الشام

وأعلام من خريجي مدرسته

للدكتور عدنان الخطيب

١٨٣ صفحة – من القطع المتوسط – ط . معهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة : جامعة الدول العربية – نيسان (ابريل) سنة ١٩٧١

بقلم الأستاذ عارف النكدي

وضع هذا الكتاب الدكتور عدنان الخطيب : عضو مجمع اللغة العربية بدمشق ، فأحسن كل الإحسان : موضوعاً وأسلوباً .

قدّم لكتابه بكلمة قال فيها :

(أنا أصوّر واقعاً مرت به أكثر الأقطار من بلادنا العزيزة . وكانت تعصف بها خلاله عوامل خفية أورثتنا بعض مانحن فيه اليوم من فرقة واختلاف رأي . وانتهت بنا إلى حال لاتسر إلا الذين يكرهون العرب والإسلام)

كلمة حق ، لايؤخذ فيها على الأستاذ إلا أنه خصص فقال (أكثر الأقطار) ولو أنه عمم فاستغنى عن (أكثر) لما عدا الصواب . فليس من قطر عربي إلا وواقعه واقع شقيقه القطر العربي الآخر فرقةواختلافاً . وليس الأمر بواقف عند العوامل الخفية بل كان بعضها ظاهراً وفي علانية ووضوح : خيانة مشهورة ، وعلى رؤوس الأشهاد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مهد المؤلف لحديثه بلمحة عاجلة عن الدولة العثمانية في عهد صعودها ، ثم هبوطها . فكانت — على إيجازها — لمحة قيمة موفقة وصورة صادقة للعهدين، تغني عن كثير من الصفحات . وخلص من ذلك إلى الحديث عن الشيخ طاهر. والحديث عن الشيخ الجزائري حديث فيه لذة ومتعة ، وفيه فوائد تاريخية ، قليل من يعرفها في يومنا هذا . فالرجل له اليد البيضاء في المجالات العلمية على الديار الشامية، ألقى بذور نهضة رأى بواكيرها في يومه ، ثم استمر مريرها من بعده .

وقد يستكبر هذا القول من لم يعرف الشيخ عن كثب ، ولا عرف ما كان له من عمل علمي في هذه الديار . ولعل عمله الإصلاحي في الشام ، لا يقل عن عمل الشيخ الإمام محمد عبده في مصر ، على ماطار لهذا من الشهرة والصيت البعيد في الأقطار العربية والإسلامية ، وهو شيء لم يرزق الشيخ طاهر مثله . وقد يرد ذلك إلى البيئة والإمكان ، وعامل الفرق يومئذ بين مصر والشام .

أُسند إلى الشيخ طاهر في أول الأمر تفتيش بعض المدارس الابتدائية : عمل متواضع لو أسند إلى غيره لوقف عنده . غير أن الشيخ — رحمه الله — كان من حوك آخر غير حوك الموظف ، فهو ما إن باشر عمله حتى جعل يصلح ما كان من المدارس ، ويعمل على ترقيتها ، ويزيد في عددها ، ثم شارك في تأسيس مدرسة ثانوية ، كانت الباب إلى تلك النهضة العلمية الاجتماعية التي وقف نفسه عليها . هذا إلى جانب ما كان يؤلف لهذه المدارس من كتب ، وما كان يلقيه من نصائح وإرشادات لتعليم المعلمين أصول التعليم .

وكان من عمله تلك الاجتماعات التي كانت تضم النخبة المختارة في زمنه من مختلف الأحياء ، وحيناً من مختلف المدن ، يحث فيها على العلم ، وعلى صرف الأبناء إليه وليس يقدر فضل الشيخ إلا من رجع إلى ما قاله الرئيس الكرد علي ونقله عنه المؤلف يصف دمشق في أواخر القرن التاسع عشر :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال : « أدركت دمشق وليس فيها طبيب قانوني ، ولا صيدلي قانوني ، ولا حقوقي قانوني ، ممن درسوا هذه الفروع على الأصول (١) » .

نقول : ووصف دمشق هذا ، هو وصف لسائر مدن الشام ، بل للمدن العربية بأسرها ومعها الولايات العثمانية عامة .

وإذا كان الأستاذ الخطيب أحسن في ترجمته للشيخ طاهر ، وفي التنويه بفضله ، فقد أحسن بترجمته لبعض المجاهدين المنسيين ، والجنود المجهولين الذين تنكر لهم جيلهم الحاضر ، فنسي اسمهم وذكرهم ، وستجهلهم الأجيال القادمة فلا تعرفهم ولا تسمع بهم .

كان الشيخ طاهر الجزائري علما معروفاً بتلاميذه وبمن كتب عنه وبما ألف فيه أما تلاميذ الشيخ طاهر المخلصون فمن يعرفهم ، أو يعلم شيئاً من أمرهم ؟

هذا محب الدين الخطيب : أستاذ جيله ، ومربي أبنائه ، ومدرب لداته . عاش في الآستانة دارساً ومدرساً وفي وطنه دمشق : وطنياً ومجاهداً ، وفي مصر عالماً ومؤلفاً . عاش للعرب وللعروبة فمن يعرفه من أبناء الجيل الحاضر ؟

وهذا سعيد الباني : الكاتب المؤلف ، والمجاهد الصابر ، الداعي إلى الإصلاح وفي سبيله عذّب وسجن ونفي . من يعرفه أو من سمع به ؟

وسليم الجزائري : البطل الشهيد رجل السيف ، والركن في الجيش ، والركن في النهضة العربية ، واضع الأناشيد الوطنية التي تناشدها الناس طويلا ، فبعث فيهم الروح العربية الصافية ، من يعرفه من الناس أو يذكره ؟ تناسوه ، وتناسوا أناشيده وجهلوا مَن وضعها ومن أنشدها .

---

(١) ص ١٧ من الكتاب ذاته ، وص ١٠٧ من كتاب « أقوالنا وأفعالنا » للأستاذ محمد كرد علي ، ط . القاهرة ١٩٤٦

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هنا يكبر فضل الدكتور الخطيب في تأليفه وفي تنويهه ببعض مَن نوه بهم[1].

(١) ومن الوطنيين المخلصين الذين جهلهم قومهم والذين يؤلمني أن لا يذكر اسمهم يوم تذكر الوطنية والعمل الصادق ،عثمان مردم . ونضطر أن نعرفه بأنه شقيق السياسي الكبير جميل مردم . وما أحسب أن في دمشق من يعرف عثمان مردم – رحمه الله – أو سمع به غير بعض ذوي قرابته ، وغير الشاعر الكبير خير الدين الزركلي ، والوطنيين الصادقين سامي العظم ورشدي الحكيم ، وكاتب هذه الكلمة .

وهذه كلمة قالها الأستاذ رشدي الحكيم في عثمان مردم في مناسبة من المناسبات :

« ولا بد من كلمة لإحياء ذكرى صديق عزيز علينا لا تبرح ذكراه من خواطرنا ، اعتبط في ريعان الشباب كما اعتبط صديقه من قبله صلاح الدين القاسمي ، ولكنه مات قرير العين على عهد فيصل ،اذ شاهد قبل وفاته الراية العربية تخفق في سماء الشام ، وهو أول ميت لفّ نعشه بهذه الراية ، وكانت وفاته عام ١٩١٨ .

كان رحمه الله من أركان جمعية النهضة ، فاتحاً داره القوراء في طريق الصالحية لإخوانه وأصدقائه . ففي أي وقت جئت تجد ترحيباً وتأهيلاً ، ووجهاً يتألق بشراً ، كان اكثر اجتماعات الجمعية فيها ، وفيها نتدرب على التمثيل ونسمر ، ونأكل ونشرب ، ومائدته لا تخلو من ضيوف من إخوانه ، وكان كريم النفس ، سمح الأخلاق ، رحب الصدر ، لم نره مرة غضبان ، يحب إخوانه ويحبونه ويجد منّة لهم عليه في زياراته » .

وهذه كلمة الأستاذ خير الدين الزركلي :

عثمان مردم بك : أبو هزار ، من شباب سورية العاملين للعروبة في ايام الحرب العالمية الأولى . مرض ، والجيش العربي على أبواب دمشق، فلما قيل له : خرج الترك ، طلب عَلَماً عربياً كان قد أخفاه ، وقال جلّلوني به .. فجلّلوه ، ففارق الحياة !

عثمان كنت أخاً لكل سجية ... عربيّة محمودة الآثار
هَلا التفتّ إلى جفون قرّحتْ ... وإلى قلوب قد كويتْ بنار
صرخت«هزار»:أبي!أتسمع صوتها ؟ ... لله ما أشجى صداح هزار
قد كنت تطمع ان ترى عَلَمَ الهدى ... في العرب خفّاقاً على الأقطار
حتى إذا انجلت السحائب لم تكن ... لترى تألق بازغ الأقمار
قلت : اللواء فجلّلوك ، ففارقت ... دنياك عينك في أحب دثار
غال الزمان فتى لو انّ حياته ... تشرى لقلت فيه روح الشاري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

نقول : وبعد هذا الرعيل الأول من المجاهدين في العهد العثماني ، جاء آخرون في عهد الانتداب ، فكان لهم في خدمة وطنهم ، واستقلاله، الجهود الجبارة . كانوا الدرع يتقي به العاملون السياسيون ضربات سلطة الانتداب . وكانوا الملجأ الأمين يفزع إليـــه الهاربون والمضطهدون ، كانوا القوة العاملة الصامتة ، وكان غيرهم الواجهة المتحركة الناطقة .

ويشير المؤلف إلى بعض رسائل الشيخ إلى إخوانه وأصدقائه ، وآخر رسالة إلى المستشرقة الانكليزية (بل) أمينة السر لحاكم العراق المحتلّ . وفيهـــا من الإخلاص لقومه والصداقة الساذجة للإنكليز والمصارحة البريئة الظاهرة مما يدل على

= ومن يعرف محيي الدين صادق ، الميداني ، البنباشي (العقيد) المتقاعد من الجيش العثماني الذي لم يكن تقاعده ولا كانت سنه ، ولا فقره ـ على عفته ونزاهته ـ بمانعة له عن ان يكون الحركة الدائمة للحركة الوطنية ، ومثله عمر فرحات الجزائري التاجر في سوق الحميدية يبيع اشياء تافهة لا قيمة لها ، ولا ربح له فيها ، ولكنه يعمل لوطنه ما فيه القيمة والربح ، ولا سيما أيام الثورة ، والحاج اديب خير الكتبي في المكتبة العمومية بباب الصالحية ، مجتمع رجال الوطنية المتنقل من مدينة الى مدينة ، ومن قطر الى قطر ، وأبو الهدى اليافي ، ما احتاجت الحركة الوطنية الى سفرة ـ على ما فيها من مخاطر ـ إلا كان لها ، وعشرات من إخوانهم في عشرات من المدن ما قصر واحدهم في خدمة وطنه بكل ما أوتيه من قوة وجهد . ما قصروا في حق وطنهم عليهم ، ولكن نحن قصرنا في حقهم علينا .

هؤلاء الأبرار المخلصون ، هل كانت تقفل الأسواق إلا برأي يصدر عنهم ، أو تقوم الإضرابات إلا بإشارة منهم ؟ لا أطمع أن يؤلف في كل منهم كتاب قائم برأسه ، لا ! هذا ما لا أطمع به ، ولكن الذي أريده لمحة عابرة في كلمة صادقة تقال في ما يجب أن يوضع من الكتب لكل مدينة مجاهدة ، يذكر فيه جهاد أبنائها وجهودهم ، يوم كان الجهاد شقاء وحرماناً ونفياً و (زنزاناً) لا على ما عاد اليوم نعمة وإثراء وأمانا .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

أن العلم الصحيح القائم على الصدق والأخلاق النبيلة ، لايجتمع والسياسة في قراب واحد ، ولاسيما السياستين الإنكليزية ووليدتها الأميركية ، القائمتين على الكذب والنفاق والغش والخداع والدسائس والألاعيب . .

وبعد فالشكر للمؤلف الخطيب على ما ألف ، ومغفرة ورحمة للشيخ الجزائري على ما ظن واستهدف .

عارف النكدي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net